ديداكتيك اللغة العربية ومشاريع الإصلاح

Didactic of the Arabic language and Reform Projects

Didaktik Bahasa Arab Dan Projek Pembaharuan

ليلى بلخير*

ملخص البحث:

يعد تراجع تداول اللغة الفصحى، من أكبر المشكلات التي يعاني منها طلبة أقسام اللغة العربية، ومكمن الخطورة يتعزز، ما دام المجال اللغوي هو العصب المحرك لكل المجالات المعرفية الأخرى، وأي إخلال له مضاعفاته على التحصيل العلمي للطلاب، والمسار المهني المستقبلي الذي بالتأكيد يتطلب كفاءة لغوية عالية. وهذه هي الحلقة المفقودة في المنظومة التربوية، من المراحل التعليمية الدنيا، إلى المرحلة الجامعية العليا. وهناك تساؤلات عن طرائق تعليم اللغة العربية، وضعف مستوى المؤطرين القائمين بالعملية التعليمية، وعزوف المتعلمين عن تداولها. هذه الأسئلة هي المحور الذي انطلقت منه هذه الدراسة، وتكلمت عن اللغة و السياق التداولي و علم لغة النص، وآفاق تعليمية اللغات، بعد ذلك قامت بمعالجة ظاهرة تراجع اللغة العربية بجامعة تبسة (في الجزائر) عن طريق استمارة أسئلة، مناسبة للكشف عن العوامل والأسباب. بعد تحليل الأجوبة ورصد النتائج، ومع مناقشة العوامل المؤدية لاستفحال ظاهرة الفشل اللغوي، حاولت الباحثة تقديم بعض المقترحات العلمية للخروج من هذه الأزمة.

الكلمات المفتاحية: السياق التداولي- تعليمية اللغات- الكفاية الاتصالية- تداول اللغة- الثقافية.

Abstract:

The reduction of the classical language is considered one of the biggest problems faced by students of Arabic language departments, and where

* أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، معهد الأدب واللغات – جامعة تبسة العربي، الجزائر.

the risk is enhanced, as long as the domain of language is the main motive for all areas of knowledge, and any wrong have repercussions on the educational achievement of students, and the path of future career, which certainly requires higher efficient language. This is the missing link in the educational system, from the minimum levels of education, graduate to the stage. There are questions about the methods of teaching the Arabic language, and the low level of those who supervised the educational process, and the reluctance of learners to study the language. These questions began from the study of the established theory of this phenomenon, and talked about the language and pragmatic context, and textual discourse, and the prospects for learning languages, then the preview to study the phenomenon of decline in the Arabic language at the University of Tebessa (Algeria) by a questionnaire to explain the detection of the factors and causes. After analyzing the answers, and monitoring results, and discussing the factors leading to exacerbation of the phenomenon of the failure of language, the researcher tries to provide some scientific proposals to emerge from this crisis.

Keywords: Pragmatic – Language Teaching – Language Skills – Language Use – Culture.

Abstrak:

Kelemahan dalam menggunakan bahasa Arab fushah dianggap sebagai salah satu cabaran yang terbesar yang dihadapi oleh pelajar-pelajar bahasa Arab dan masalah ini dilihat semakin membimbangkan apabila bahasa arab fushah menjadi medium perantaraan yang utama dalam bidang-bidang ilmu yang lain. Hal ini adalah kerana ia memberi kesan kepada pencapaian akademik pelajar dan peluang kerjaya mereka di masa hadapan yang sudah pasti memerlukan mereka menguasai bahasa dengan baik dan ini merupakan kekurangan sistem pendidikan hari ini samada di peringkat rendah atau sistem pendidikan tinggi. Justeru, timbul persoalan tentang kaedah pengajaran bahasa Arab dan kelemahan tenaga pengajar dalam menjalankan proses pengajaran dan pembelajaran sehingga menyebabkan pelajar enggan bertutur dalam bahasa ini. Persoalan-persoalan ini menjadi titik tolak kepada kajian ini yang mana ia akan membincangkan tentang bahasa, konteks, analisis teks dan prospek pengajaran bahasa seterusnya menangani fenomena kemunduran bahasa Arab di Universiti Tibsah di Algeria menggunakan borang soal selidik sebagai instrumen kajian bagi mengenal pasti faktor-faktor yang berkaitan. Selepas menganalisa jawapan dan memperoleh hasil kajian tentang faktor-faktor yang membawa kepada kemunduran bahasa, penyelidik akan memberi beberapa cadangan yang sesuai bagi menyelesaikan isu ini.

Kata kunci: Pragmatik – Pengajaran Bahasa – Kemahiran Bahasa – Penggunaan Bahasa – Budaya.

مقدمة:

يعد تراجع اللغة اللغة الفصحى من أكبر المشكلات التي يعاني منها طلبة أقسام اللغة العربية، ومكمن الخطورة يتعزز ما دام المجال اللغوي هو العصب المحرك لكل المجالات المعرفية الأخرى، وأي إخلال له مضعفاته على التحصيل العلمي للطلاب والمسار المهني المستقبلي الذي بالتأكيد يتطلب كفاءة لغوية عالية. وهذه هي الحلقة المفقودة في المنظومة التربوية، من المراحل التعليمية الدنيا، إلى المرحلة الجامعية العليا.

على الرغم من سعي برامج تدريس اللغة العربية في كل الأطوار، على تطوير المهارات اللغوية، والتركيز على الاستعمال الذي يعطي أهمية قصوى للممارسة، والتداول طبقاً للنظريات الحديثة الخاصة بتعليم اللغات.

هل المشكل في طرائق تعليم اللغة العربية، أم في ضعف مستوى المؤطرين القائمين بالعملية التعليمية؟ أم في عزوف المتعلمين عن تداولها نظير أسباب نفسية و اجتماعية، وثقافية متشابكة، أم عين المشكل في اللغة الفصحى وعجزها عن استيعاب الهموم أو الاهتمامات المعاصرة؟ ما العوامل والأسباب التي أدت إلى استفحال هذه الأزمة؟ خاصة أن المقاييس المقررة في أقسام اللغة العربية، مجتمعة لإحياء ملكة اللسان الفصيح، أما الواقع فيعكس حالة من الضعف العام، غير مقتصر على فئة خاصة تعاني عجزاً و تأخراً، بل أضحى ظاهرة عامة، ووباء يسعى إلى العلاج.

وللإجابة عن هذه الأسئلة، انطلقت من التأسيس النظري لهذه الظاهرة، تكلمت عن اللغة والسياق التداولي وعلم لغة النص، وآفاق تعليمية اللغات، بعد ذلك قمت بمعاينة لدراسة ظاهرة تراجع اللغة العربية بجامعة تبسة (الجزائر) عن طريق استمارة أسئلة، مناسبة للكشف عن العوامل والأسباب، تطبيقاً على عينة من مائة طالب وطالبة في السنة الثالثة والرابعة ومائة طالب جامعي ينتمون إلى قسم اللغة العربية و آدابها. بعد تحليل الأجوبة ورصد النتائج، ومع مناقشة العوامل المؤدية لاستفحال ظاهرة الفشل اللغوي، قدمتُ بعض المقترحات العلمية للخروج من هذه الأزمة.

اللغة والسياق التداولي:

اللغة خصيصة إنسانية بلا مراء، ودراستها من أقدم فروع الدراسات المنهجية، ومن أخصبها وأكثرها ثراء، ولا ريب أن للملكة اللغوية كل الخطوات، لعلاقاتها وبشكل جوهري بمظاهر "وهي مسؤولة بشكل كبير عن أن للبشر وحدهم في العالم الأحيائي تاريخاً وتطوراً ثقافياً، و تنوعا لا حدود لتعقيده وغناه، بل هي مسؤولة كذلك عن النجاح الأحيائي الذي حققه بالمعنى التقني".[١]

ويقصد (تشومسكي) قدرة هذا العدد الهائل من البشر على التعايش، والتواصل والتنظيم، يعود إلى اللغة التي لا يمكن التفكير في نجاح تقني للبشر بمعزل عن تعاطي مفرداتها، ثم مسألة أخرى مهمة هي التأريخ لهذا النجاح ألا يحتاج إلى لغة؟

ونحاول حصر بحثنا في المجال التداولي للغة، هذا التوجه الجديد الذي يقدم نظرة عميقة ومتميزة للغة، بإعطائها وظيفة أداتية في إطار أوجه نشاط شاملة، فلم تعد اللغة بوصفها نظاماً مستقلاً، بكل أنظمتها الجزئية وسياقات استخدامها، أساس تحليلات النص، لدرجة أن هناك بعض الباحثين من يصرح بموت العلامة[٢] وأن الاهتمام الذي نالته في النصف الثاني من القرن العشرين قد رأت من واجبها الإقرار بنهاية موضوعها، وصار الالتفات إلى اللغة أو استعمالها،[٣] وتراجعت النقاشات النظرية، والإسراف في الاحتفال بالرموز والعلامات بمعزل عن سياق تداولها، ومعطياتها المرجعية، وهناك شبه تنصل من الدراسات المتعلقة بأوجه الوصف اللغوي النصي[٤] والإقبال على دراسة أوجه النشاط اللغوي الفعلي.[٥]

ومن هنا زادت العناية باللغة، بوصفها أداة لتحقيق مقاصد اتصالية، واجتماعية للمتكلمين، ليست نتاجاً جاهزاً، ومنتهياً، أو جملة محددة، تحلل نحوياً أو دلالياً، إنها أكثر من ذلك بكثير، إنها ممارسة واستعمال، يتطور تحت تأثير بنية التفاعل داخل المجتمع، وهذه النظرة الوظيفية للغة في تفاعلها، إنما هي تصحيح ضروري للنظرة (السيكولوجية) للغة واستعمالها، حيث إن قدرتنا وكفاءتنا في التكلم، إنما هي موضوع جوهري لفلسفة العقل، ومتى تأكدنا من ذلك صارت معرفتنا باللغة بأنها نسق ذهني معقد، إلا أن هذا النسق مثله مثل سائر الأنساق الأخرى المتواضع عليها، قد يصاغ من ناحية أولى عن طريق مقتضيات أثر السلوك المجتمعي وفعاليته، ومن ناحية ثانية يستعمل هذا النسق الذهني، ويتعدل تحت هذه الضغوط والقيود الاجتماعية.[٦]

والحقيقة أن الاشتغال في المدة الأخيرة مكثف بإشكالية التواصل والسلوك التواصلي، والتركيز على الوقائع الكلامية الفعلية، والفعل اللغوي التواصلي الذي يهدف معرفياً إلى إيضاح طرائق السلوك والأفعال التواصلية (اللغوية). إن موضوع علم اللغة لم يعد اللغة فقط بوصفها تجريداً لوقائع كلامية، أو بوصفها نظاماً يعد أساسا لكل ما يتكلم، بل موضوعه الوقائع الكلامية ذاتها.[٧] ولم يعد يسأل عن بنية النظام اللغوي، وعن العناصر اللغوية وقوانين اتساقها، وانسجامها، وعن التشكيل الدلالي للرموز اللغوية، بل عن الوقائع الكلامية، كأفعال ومواقف تتحرك بوصفها نشاطا كلاميا إنسانيا (تبادليا) ينظر إليه في إطار شروط طرائق الفعل البشري، ويبحث عن التفسير في الحاجات العلمية، أوللرغبات الثقافية.

لم يعد النص يشكل نفسه، وبناءه اللغوي أو الدلالي في وقتنا الحالي، أي إثارة للبحث والدرس، بل أضحت دراسة أوجه الوصف اللغوي النصي، مجرد مرحلة تمهيدية أولية يقف عليها لبحث أوجه النشاط الفعلية الاتصالية المؤسسة للنص، بوضعه في سياقات اجتماعية ومجتمعية شاملة.

و هذا ما نجده ماثلا في هذه الخطاطة:[٨]

(الوظيفة الجملية) ⟵ جملة ⟵ (الوظيفة الخطابية) ⟵ الجملة في السياق ⟵ (الوظيفة التداولية)

الدلالـــــة التداولـــية

وهنا نفهم من أن المركب الدلالي، يؤدي وظيفتين، الوظيفة الجملية التي هي وظيفة أولية، تفسر المعنى بوصفه نتاجاً عن تشكيل الرموز اللغوية، في نسق الجملة، والوظيفة الخطابية التي هي وظيفة ختامية وتؤمن انصهار الجملة في الخطاب، وأي جملة جيدة التكوين يمكن تأويلها دلالياً، وتنتج معنى واضحاً ومفهوماً،[٩] ويصطلح على ذلك بالدلالة الوضعية، والتي تعالج المعنى الظاهر نسقياً من جملة ما، أما ما يريد أن يقول بالضبط مستعمل هذه الجملة، وماذا يقصد باستعماله لها؟ فعله علاقة بالدلالة المقامية[١٠] التي تتطلب معرفة بالتأويل للإجابة عنها وطرقها.

وفي ذلك توسيع معنى النص ليشمل سياقات واستراتيجيات وعوالم محيطة بنا من كل جانب هي أبعد مدى من مجرد التأليف اللغوي.[١١] بهذا يؤسس (جاك دُريدا) في كتابه (الصوت والظاهرة) لفكرة هدم مفهوم العلامة، وتفكيك المنطق الذي يستند عليه، وهو محاولة اختراق لدورة العلامات بدوالها، ومدلولاتها، وإزاحة المفهومات العالقة بها عن مواضيعها ويركز على أزمة العلامة، والاهتمام باللغة من حيث هي فعل وإرادة، وعزم على القول، والغرض منها هو الاقتراب من روح اللغة وإمدادها بروح الفعالية.[١٢]

وفعاليتها في الاستعمال فإنه ينبغي التوجه إلى تحديد الضوابط التي تحكم الاستعمالات، والسياقات التي تحدد معاني الكلمات؛[١٣] لأن الاستعمال يخرج بها من دائرة اللغة الساكنة إلى مجال الكلام المتحرك، ويتمثل أساساً في رصد أوجه التغير الذي يصيب المدلولات باختلاف المواقف التي تستخدم فيها، والملابسات التي تحيط بها.

علم لغة النص وآفاق تعليمية اللغات:

هذا التوجه الجديد لعلم لغة النص، التطبيقي العلمي، وينصب بالدرجة الأولى في تعليم اللغات لتطوير أنظمة مفهومة لغوياً في مجال الاستيعاب اللغوي التلقائي، وعمليات الفهم واكتساب المعرفة عبر النصوص؛ أي توضع وتسخر بوجه خاص يهدف إلى تنمية اكتساب الكفاءة اللغوية.

ومن أهم إنجازات علم لغة النص الاهتمام بالمنهج الاتصالي باعتباره أحدث مناهج تعليم اللغات، وقد استخدم هذا المنهج استخداماً واسعاً، ويعد في جانب واسع منه رد فعل على الاعتقاد بأن تعلم قواعد اللغة (النحو) يتبع القدرة على استعمالها، وتبنى التجارب الاتصالية هناك على أساس النظر إلى وظائف اللغة بوصفها واجبة التوكيد أكثر مما ينبغي أن تؤكد صيغ اللغة.[١٤]

ولهذا يقترح أصحاب هذا المنهج استعمال النصوص بوصفها وسائل لاكتساب المتعلم اللغة، ويتعلق الاشتعال بالنصوص في التدريس بالمرحلة الأولى من اكتساب اللغة، وفي المرحلة المتأخرة من الاتصال اللغوي على المتعلم أن ينجز مهاماً و خطواتٍ إجرائية تمكنه من استيعاب النص، واختصار مضمون النص، وإعادة ترتيب أفكاره الأساسية، واستخلاص الرابط الخفي وصولاً إلى بناء نصوص استناداً على النموذج الأصلي، وإعادة صياغة مضمون النص...إلخ؛ ولذلك تتطلب هذه المرحلة من متعلم اللغة ليس فقط المعرفة اللغوية، بل المعرفة الإنجازية؛ أي معرفة الأبنية النصية الكلية، بما فيها من مخططات إنتاج النصوص، ومخططات تفسيرها...إلخ.[١٥] وهذا عين المشكل الذي يعاني منه الطالب في قسم اللغة العربية وآدابها، أي التراجع في الكفاءة اللغوية، والعجز عن أداء الأنشطة اللغوية الفنية المتعلقة بالفهم والإدراك.

الكفاية اللغوية/الكفاية الاتصالية:

يقول (تشومسكي): "حين تفهم اللغة على أنها ممارسة اجتماعية بالطريقة التي تصورها هذه المناقشات– أن ننظر إلى معرفة اللغة على أنها القدرة يمكن ممارستها بالتكلم والفهم والقراءة والحديث إلى النفس..إلخ أي أن معرفة ما لا تعدو امتلاك القدرة على القيام بهذه الأمور، وأمور أخرى مماثلة"،[١٦] تعني الكفاية اللغوية له معرفة المتكلم بلغته، والأداء هو ثمرة المحصلة؛ أي ما ينتج عن هذه المعرفة من كلام متحقق في مواقف ملموسة، وهي في تعريف (أكزار): قدرة الشخص على إنجاز العمليات الاتصالية اللغوية، وغير اللغوية، متكلماً ومستمعاً، وفق مواقفها وتبعاً لقواعد الجماعة الثقافية الاجتماعية والنفسية الاجتماعية.[١٧] وينبني البحث في الكفاية التفاعلية على أساس القانون الآتي: من يقول؟ ماذا؟ في أي قناة؟ لمن؟ بأي تأثير؟

وينبغي في عملية التفاعل تحقيق التطابق التداولي والسيميائي والمحافظة عليه، كما ينبغي مراعاة السياقات الثقافية،[١٨] وقد أضاف أو كزار الكفاية الاتصالية، لفكرة (تشومسكي) عن الكفاية اللغوية.

وقد رأى بن خلدون في السياق ذاته أن المعرفة اللغوية مكتسبة، فالأوضاع الكلامية غير متكلفة، وإنما ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول؛ لذلك تكتسب بالطرق الآتية: السمع وهو أبو الملكات اللسانية، والتعليم ووجهه حفظ كلام العرب الجاري على أساليبهم، وكثرة الحفظ، ذلك أن حصول ملكة اللسان العربي، يتحقق بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج عليه، ولا تحصل الملكة من حفظ كلام العرب إلا بعد فهمه، وممارسته، فالملكة تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرره على السمع والتفطن لخواطر تركيبه،[١٩] "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام آل جيله، وأساليبهم في مخاطبتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولا، ثم يسمع

التراكيب بعدها، فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة ويكون كأحدهم".[٢٠]

و يمكن تلخيص ذلك كالآتي:

وقوع الفعل اللساني ← صفة للذات ← تكرار الصفة ← زيادة التكرار ← ملكة أوصفة راسخة.

إن أهم انتقاد وجه للمنظرين في موضوع الكفاية اللغوية، هو أن يكون المتكلم متمتعا بصحة وسلامة نحوية، لكنه يعجز في موقفه الاتصالي الاجتماعي، ولهذا كان التوجه نحو الاهتمام بالمجال الوظيفي للغة وكيف تحقق الوظائف والمقاصد عبر وضع العلامات اللغوية في سياقاتها الاتصالية الاجتماعية المناسبة.

ظاهرة تراجع تداول اللغة:

الكفاية اللغوية هي: "نظام من القواعد والمبادئ التي تمثل تمثيلاً عقلياً والتي تمكن المتكلم من فهم جمل حية، وتمكن الجمل من التعبير عن أفكاره إذ ترتبط الأصوات بالدلالات، وينتمي إلى كفاية المتكلم النحوية قدراته التركيبية والدلالية والفونولوجية التي تقضي بتطابق التعبيرات مع ما تعبر عنه في لغة بعينها، كما تضم الأحكام عن حسن السبك الشكلي والدلالي، ومرجعية التعبيرات، والتماثل الدلالي، والتعدد الدلالي، ودرجة الانحراف"؛[٢١] أي هي المعرفة اللغوية والقدرة على استخدام هذه المعرفة، امتلاك الكفاية على ممارستها وأدائها.

والتراجع اللغوي في بعده التداولي هو تجرد المتعلم من كل الخصائص السالفة الذكر، أو التعثر في ممارستها، أثناء تداول اللغة، لأسباب نرصدها، ثم نتناولها بالتحليل في العنصر الموالي.

أسباب تراجع تداول اللغة:

لفهم أبعاد هذه الظاهرة، قمت بمعاينة ميدانية عبر طرح مجموعة من الأسئلة على طلبة قسم اللغة العربية وآدابها بالمركز الجامعي العربي التبسي، وكان عددهم مائة طالب وطالبة كلهم في السنة الثالثة والرابعة.

و الأسئلة هي:

- هل كان التحاقك بقسم اللغة العربية وآدابها اختياريا أم جبريا؟
- ما الصعوبات التي وقفت دون اتقانك للغة العربية الفصحى؟
- هل تمارس عادة المطالعة بدافع ذاتي، أم بدافع الواجب الدراسي؟

ومن تحليل الأجوبة التي سنذكرها في مواطنها، حددت الأسباب كالآتي:

١ – الأسباب العامة.

– سوء تخطيط المنظومة التربوية:

لا شك أن وضعية التأخر والتخلف اللغوي لدى طلبة التخصص ظاهرة ملفتة، ومشكلة عويصة، والحقيقة أن هذا الضعف يحمله الطالب معه كلما انتقل إلى مرحلة أعلى، وفي مرحلة البكالوريا يختار الطلبة المتفوقون ذوو الكفاءات العالية اختصاصات علمية لها قيمة اجتماعية واقتصادية، بينما يوجه من لم يسمح له مجموعه بالاختيار إلى أقسام اللغة العربية وآدابها، وكذا باقي فروع العلوم الإنسانية، لكن دوما أقسام اللغة العربية هي منقذ من لا يجد مقعداً جامعياً على أساس أنه لا يحتاج إلى شروط أو مؤهلات يجب توفرها في الطالب الملتحق بها؛ لذلك يدخل الطالب، وهو يفتقر إلى أرضية لغوية تمكنه من امتلاك اللغة الفصحى.

و قد بينت الاستبانة أن ٥٧% من الطلبة الذين أجابوا عن الأسئلة من تخصصات مختلفة في المرحلة الثانوية، وقد أعربوا عن عدم رغبتهم في الالتحاق بقسم اللغة العربية وآدابها، لكن معدلاتهم الضعيفة أرغمتهم على ذلك.

هذه الظاهرة ما هي إلا تحصيل حاصل، ونتيجة رواسب سنوات التحصيل الأولى وفي كل الأطوار التعليمية، وهناك دراسات ميدانية عدة تؤكد على هذه النتيجة، منها دراسة قام بها الأستاذ (علي تعوينات) تحت عنوان (التخلف الدراسي أسبابه و علاجه)، حيث توصل إلى أن معوقات التحصيل العلمي هي العجز اللغوي.[٢٢] وفي دراسة أخرى بعنوان: "التأخر الدراسي اللغوي لدى تلاميذ السنة التاسعة بالمدرسة الأساسية" توصل صاحبها إلى أن التأخر اللغوي خلل يتهدد المنظومة التعليمية،[٢٣] لذا يدق ناقوس الخطر بالدعوة إلى السرعة في معالجة ما أسميناه نحن بتراجع تداول اللغة الفصحى.

إنّ أمراً كهذا ناتج عن سوء التخطيط الذي تعاني منه المنظومة التربوية؛ لأن المخطط التربوي الجزائري، وأمام الأعداد الهائلة من الطلبة، وتحقيقا لمبدأ ديمقراطية التعليم، لا يجد أي غضاضة في إلحاق كل الحاصلين على البكالوريا بالجامعة، وإن لم تسمح مؤهلاتهم بذلك، وبحجة زيادة نسبة الناجحين في البكالوريا أيضا حدث التسيب في قاعات الامتحانات، وفقدت الشهادة قيمتها العلمية، زيادة على أن كل دفعة عليها ترك المكان لمن ينتظر خلفها، وهكذا تتحول عملية التعليم إلى ركض متسارع، دون هدف أو غاية، فديمقراطية التعليم –والتي لا أحد ينكر ضرورتها– اصطلاحاً تعني تكافؤ الفرص في التعليم، ولا تعني بالضرورة توفير مقعد جامعي لكل حامل البكالوريا، إن من يعود إلى الأنظمة التربوية العالمية، يجد أن معظمها يعمل على تطبيق مبدأ الديمقراطية، لكن بالشكل الذي يستجيب للاحتياجات الحقيقية للبلاد، من ناحية، وحسب الإمكانات المادية من ناحية أخرى.[٢٤]

والواقع المزري أن المعاهد تقبل انتساب الطلبة إليها حسب المقاعد الجامعية المتوفرة فيها، وأحياناً أكثر من طاقتها الاستيعابية، دون تخطيط منهجي، وصار لزاماً على أصحاب الشأن التحرك لإنقاذ

الجامعة، ولا يتم هذا الأمر إلا بالدراسة الحقيقية لحال الطلبة، والسماح لهم بالدراسة في تخصصات قريبة من مؤهلاتهم، وحامل البكالوريا الذي لم تتوفر فيه المواصفات اللازمة عليه بالتوجه لمجالات مهنية أخرى، أو يحاول التحصيل حتى يمتلك المؤهلات.

– الأوضاع الثقافية العامة للبلاد:

من أهم معوقات تداول اللغة الفصحى لدى الطلبة، هو وجودهم أصلاً في سياق ثقافي يتميز بالركود والضحالة والتقهقر؛ مما أصاب ذوي المواهب الأدبية والقدرة اللغوية منهم بالعطب والضمور، خاصةً تراجع تداول اللغة الفصحى، انطلاقا من الإدارة، إلى المرافق العامة، انعكس كل ذلك على الطالب سلبا، ليتملص من تداولها سنة بعد أخرى، ويجد نفسه على عتبة التخرج، والأمر أنه يجد نفسه معلما للغة العربية، وهو يفتقد مؤهلات ممارستها، وقد اتضح من إجابات بعض الطلبة أنه عند محاولته تداول الفصحى على الأقل داخل الحرم الجامعي ومع زملاء من القسم واجهوه بسخرية، فاضطر إلى التخلي عن تداولها، إلا إذا طلب منه ذلك ضمن الإطار الدراسي الرسمي. وكذلك تراجع المطالعة في وسط طلاب قسم اللغة العربية وآدابها، إذ بينت الاستبانة أن ٧٣% من الطلبة لا يقرؤون إلا مجبرين بدافع البحوث طلبا للعلامة، ومن يقرأ فيهم طواعية يجد صعوبة في فهم ما يقرأ، وحتى وإن وظف الجمل والنصوص في بحوثه، ينقلها حرفيا دون إيضاح، أو وعي بما ينقل، لذا يجد صعوبة في إيصالها ساعة العرض بلغة فصيحة.

ويقع الطالب في شرك نظام لغوي مغلق حتى يخيل "أن الإطار الثقافي الذي يشغلنا لا يخلو من توجس وتشاؤم وعثرات الاتصال، أو عثرات المجتمع وتناقضاته، وبؤسه الفكري من خلال اللغة التي جعلناها موضوع اهتمامنا".[٢٥] هذا النظام اللغوي من أهم مسببات ضعف تداول اللغة العربية؛ لأنه يضعها في قواعد وخلاصات تلقن للطالب بسبب أنه يجد عسراً في فهمها وإعادة تركيبها من جديد، وأدائها بإتقان بصورة مرضية من الصور، لأن الكفاءة اللغوية في الاستعمال.

٢– الأسباب الخاصة.

– المشكلات البيداغوجية: تعد ظاهرة تراجع تداول اللغة العربية انعكاس لحالة الإحباط من وضع الجامعة في الجزائر، وطلبتها الذين يدرسون فقط ليلتحقوا بزمر العاطلين، و لهذا هناك حالة من السوداوية واليأس، واللامبالاة متوارثة جيلاً بعد جيل.

واللغة العربية بالنسبة إلى طالب التخصص هي العصب المحرك لكل المقاييس المقررة، والتخلف الدراسي الذي يعاني منه الطلبة من رسوب في الامتحانات، وإعادة السنة رغم مرورهم على امتحان شامل وآخر استدراكي، كل ذلك يعود إلى أساس المشكل (العجز اللغوي) الذي يحد من قدرات

الطالب على الفهم، والاستيعاب والمراجعة، وإنجاز العروض، وحتى فهم بعض الأسئلة التي تختلف في أسلوبها عن الصياغات الموجودة عنده في المحاضرات. وتجد هذا الطالب يرسب في الامتحان لاصطدامه بالحاجز اللغويّ رغم أنه يحفظ كل المحاضرات، ولكن من دون فهم، ودون قدرة على إعادة ترتيب المعلومات بأسلوبه الخاص. فقد بينت أجوبتهم أن ٨٣% من الطلبة تعرضوا لصعوبات لغوية أثناء مسارهم الدراسي تمحورت في صعوبة بعض المقاييس اللغوية، إذ يجدون عسراً في الفهم خاصةً ما يتعلق بالمصطلحات الجديدة عليهم، وكذلك صعوبة فهم النصوص في الكتب، وعدم القدرة على تلخيصها بأسلوب خاص، إذ يكتفي بالقراءة فقط التي غالباً ما تكون متعثرة، بعيدة عن الأداء الفصيح الطلق؛ ذلك أنه لم يتدرب على إعادة بناء النصوص بصياغة جديدة، والتلخيص الطويل منها، وشرح وإطلاق القصير منا أيضا، مما سبب للطلبة إعاقة لغوية على مستوى الذهن والعقل أورثت للكثيرين منهم عسراً في فهم محتوى النصوص المقروءة، وغالبا ما تتميز محاولاتهم بالسطحية والتعميم، والسبب أنهم ورثوا فهم المفردات حسب معانيها المنعزلة عن الجملة، أي أن فهمهم لها يتم ضمن سياق الجملة، لأنهم أصلا لم يتدربوا على أي مهارات إنجازية لترقية الحصيلة اللغوية.

من أهم المشاكل البيداغوجية التي أورثت لنا هذا الواقع هي عدم مواكبة الجديد في طرائق التدريس، والاكتفاء بالطريقة الإلقائية في المحاضرات، دون إفساح المجال للحيوية والحوار والمناقشة وإعادة ترتيب المعلومات في الذهن بصياغات جديدة، وميسرة.

كذلك طغيان الحصص التطبيقية المثقلة بالعروض التي تتربع على الحصة كاملة، دون الاهتمام بتدريب الطالب على الإلقاء الجيد، فهو يقرأ أوراقا لا يفقه منها قولا، ومن ثمّ لا يحسن به توصيل الفكرة المقصودة إلى زملائه؛ ولهذا جاءت توصيات كثيرة من الباحثين في الميدان بالقضاء على هذه الظاهرة، ويحضر الطالب العرض و معه كل طلبة الفوج، و يتدرب الجميع معاً على الأداء اللغوي السليم، ثم عند تذليل كل الصعاب من طرف درس الأستاذ، يفسح المجال بنصف ساعة لأصحاب العرض مع تكليف الطلبة بالتحضير الجيد، والتدريب على التلخيص و الإلقاء عن طريق الأسئلة والأجوبة و تقديم الملاحظات الوجيزة " إن أي شخص يعد للكلام في وضع تدريسي يجب أن يعي الإخراج الذي يفرضه استخدام الكلام".[٢٦]

وأيضا عدم التنسيق بين المحاضرة والتطبيق يورث التشتت في الأفكار، وعدم تدعيمها، ولا يفسح المجال لتدريب الطالب على إنجاز المهارات اللغوية، داخل الحصة التطبيقية، بل تجد المطبق يحاول سد فراغ المعلومات النظرية، بتقديم محاضرات في الحصص التطبيقية.

وأيضا لابد من إعادة النظر في نظم تقويم الامتحانات بما يخدم ترقية المهارة اللغوية للطالب، بتقديم أسئلة تخدم التخصص العلمي، وتسهم في إنعاش قدرة الطالب على استخدام اللغة، وبالتعبير الذاتي، وعدم تقييده بحفظ صياغات الأساتذة.

الخاتمة:

وفي الختام أقول بأن هذه المداخلة تأتي للكشف عن أهمية القدرة اللغوية، وتداولها خاصة بين طلبة أقسام اللغة العربية وآدابها، وفيما يأتي أهم نتائج البحث:

– تراجع الدراسات النظرية التي تسرف في الاحتفال بالرموز والعلامات، بمعزل عن سياق تداولها، ومعطياتها المرجعية، والتنصل من الدراسات المتعلقة بأوجه الوصف اللغوي النصي، والإقبال على دراسة أوجه النشاط الفعلي.

– الدلالة الوضعية تعالج المعنى الظاهر نسقياً من جملة ما، أما ما يتعلق بمقاصد المتكلم من استعماله ومناسبة هذه الجملة لسياق استعمالها فله علاقة بالدلالة المقامية، المرحلة الأولى من معالجة النص تسمى بالمرحلة الدلالية، والثانية بالتداولية.

– من أهم انجازات علم لغة النص الاهتمام بتدريب متعلم اللغة على أداء أنشطة وإجراءات علمية تمكنه من تنمية قدرته اللغوية بالانتقال من مرحلة المعرفة الإنجازية، وهي المعرفة بالأبنية النصية الكلية، وفيها مخططات إنتاج النصوص و مخططات تفسيرها.

– الكفاية اللغوية هي القدرة على استخدام المعرفة اللغوية، وامتلاك الكفاية في ممارستها وأدائها في سياقات اتصالية واجتماعية مناسبة.

والفشل اللغوي هو التعثر في استخدام المعرفة اللغوية والعجز في ممارستها وأدائها، وهذا المشكل يكاد أن يصير ظاهرة عامة بالنسبة إلى طلبة التخصص، والطبيعي والمناسب، أنهم الصفوة الممتازة في جوامع الكلم الفصيح.

– أما أسباب الظاهرة فقد حصرتها عبر المعاينة الميدانية، ولاحظت أنها تتشابك فيها الأسباب العامة بالخاصة.

فالأسباب العامة منها: سوء تخطيط المنظومة التربوية في توجيه طلبة البكالوريا دون خطة واضحة، أو إستراتيجية مفهومة، مع سوء تفسير شعار ديمقراطية التعليم، وأيضا الأوضاع الثقافية العامة للبلاد، إذ أعرب ٥٧% عن عدم رغبتهم في الالتحاق بقسم اللغة العربية وآدابها، وإنما وجهوا إليه قصرا.

ومن الأسباب الخاصة (البيداغوجية) عدم مواكبة الجديد في طرائق تدريس اللغة العربية، والاكتفاء بتكرار الأساليب البالية، ولابد من ربط الدروس بالسياقات التواصلية، والأمثلة الواقعية، والتشجيع على تعاطي مفرداتها وتداول تعبيراتها وأساليبها، كنوع من تشرب الاستعمالات، وإعادة إنتاجها لغويا عن طريق تنشيط الذهن والعقل والفكر، كعمليات التلخيص، وإعادة ترتيب الأفكار، أو شرحها باستعمال الصياغات الخاصة.

– التأكيد على قصدية تدريب الطالب على إنعاش نشاطه اللغوي، بوصفه مقصدا أوليا لإنعاش تحصيله العلمي اللائق بشهادة التخصص (اللغة العربية)، والمحاضرات، والدروس، والبحوث،

والامتحانات بوصفها وسائل مساعدة؛ فالطالب يدرس أربع سنوات لا يفرق بين الوسائل والمقاصد، وفي ذلك تحريك لمعاني التداولية، فـ٧٣% لا يقرؤون إلا بدافع الإجبار طلبا للعلامة.

– الاستفادة من انجازات علم لغة النص في تحسين القدرة الإنجازية للطالب، وتسخير ذلك للحصة التطبيقية، وما على الأستاذ إلا إعادة إخراج الحصة التطبيقية إخراجا يتناسب مع التطور العلمي في الارتقاء بمهارة تداول اللغة في واقع الدرس ـ ليسهل عليه تداولها في واقع الحياة، فقد بينت الاستبانة أن ٨٥% من الطلبة أقروا بتعرضهم لصعوبات كثيرة في مسارهم الدراسي.

وأخيرا أقول إنه يتوجب علينا وضع خطة استراتيجية لتطوير طرائق تمكن الطالب من ترقية مهاراته الإنجازية في تعلم اللغة واستعمالها، و بما أن هناك رابطا أساسيا بين التعليم والكلام كما قال (بارت)، فلتكن مهمتنا تدريب الطالب على الكلام بلغة فصيحة، إلى جانب تزويده بالمعلومات في شتى المقاييس، حتى يتمكن من التواصل بثقة ونجاح.[٢٧]

هوامش البحث:

[١] انظر: تشومسكي، ناعوم، **آفاق جديدة في دراسة اللغة و الذهن**، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٥)، ص٨٥

[٢] التداول أو التداولي: أقدم تعريف له كان سنة ١٩٣٨، وضعه (موريس)، والتداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات و الجمل بالمتكلمين، وتشكلت ملامحها على يد (جون أوستين) سنة ١٩٥٥، وانطلاقا من سؤال مهم عن اللغة والواقع باعتبار التداولية تدرس اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية، واجتماعية معا، وهي تقع في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللسانية، وهي تقف على ثلاث مفاهيم، وهي: مفهوم الفعل وهو أن اللغة تخدم إنجاز أفعال، والكلام هو أن نفعل؛ ومفهوم السياق، ونقصد به الوضعية وتنطق عبرها مقاصد تخص المكان، والزمان، وهوية المتكلمين؛ ومفهوم الإنجاز، ونقصد بالإنجاز، إنجاز الفعل في السياق، إما بمحايثة قدرات المتكلمين (معرفتهم وإلمامهم بالقواعد) وإما بتوجب إدماج التمرس اللساني بمفهوم أكثر تفهما، كالقدرة التواصلية. ومن أقطابها (شارل ساندرس بيرس) ومؤسس علم الدلالة (كوتاب فريج) وصاحب التواصلية (لودويك فيتغنشتاين) و(شارل وليام موريس) وغيرهم. انظر أرمينكو، فرانسواز، **المتقاربة التداولية**، ترجمة: سعيد علوش، (مركز الإنماء القومي، د. ت)؛ و روبل، آن وجاك موشلار، **التداولية اليوم**، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، (المنظمة العربية للترجمة، ١٩٩٨).

[٣] انظر: إيكو، أمبيرتو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، ترجمة: أحمد الصمعي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط١،٢٠٠٥) ص٤٣.

[٤] علم لغة النص: فرع علمي بكر تشكل في النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين، والنصف الأول من تسعينياته، يحاول استيعاب مباحث علم لغة الجملة على أساس تكاملي، لأنها شرط جوهري للدراسات اللغوية النصية، و يتوسع ليشمل قضايا التواصل، ويمتاز بخاصية التداخل، حيث يلامس حدود العلوم اللغوية المجاورة، من بلاغة و أسلوبية، واتسع ليضم إنجازات الدرس اللغوي في العصر الحديث، خاصة مع التحول البراغماتي، و النزوع إلى التطبيق العلمي، وتحديد لدور علم اللغة في المجتمع، والحرص على مسائل الاستخدام الفعلي للغة، وقضايا الممارسة اللغوية مثل مشكلات المعلومات اللغوية، واكتساب اللغة، و عليم اللغة، وإمكانات التأثير المتعددة للغة في الاتصال اليومي، واستعانت بما يدور فيما وراء اللغة في التحليل والتفسير، حين وضع في الاعتبار مستويات القراءة، و أحوالهم النفسية و الاجتماعية وأشكال التواصل، ودرجات الفهم والاستيعاب، وطرق التذكير والاستعادة، وكيفية الترابط الذهني بالسياقات المختلفة، وأطراف الموقف التواصلي. ومن أقطابه (هاريس، هارفلج فاينريش، غريماس، فان ديك، فولفانغ هاينه مان ديتر فيهغجر). انظر: هانيه، فولفانج، ومان ديتر فيهغتر، **مدخل إلى علم لغة النص**، ترجمة: سعيد حسن بحيري، (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ط١، ٢٠٠٤).

[٥] انظر: المرجع نفسه، ص٥٢-٥٣.

[٦] انظر: ديك، فان، **النص و السياق:استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي**، ترجمة: عبد القادر قنيني، (المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠٠٠)، ص٢٢٧-٢٢٨.

[٧] انظر: كارل ديتربورنتج، **المدخل إلى علم اللغة**، ترجمة: سعيد حسن بحري، (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١،٢٠٠٣)، ص٢٨٦-٢٨٧.

[٨] انظر: مارتن، روبير، **في سبيل منطق للمعنى**، ترجمة: الطيب البكوشي، وصالح الماجري، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٦)، ص٣٠.

[٩] انظر: المرجع نفسه، ص٢٩.

[١٠] انظر: أمبرتو إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، ص ١٢٩.

[١١] انظر: دريدا، جاك، **الصوت والظاهرة، مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل**، ترجمة: فتحي إنقزو، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١،٢٠٠٥)، ص١٢.

[١٢] انظر: المرجع نفسه، ص٢٠.

[١٣] انظر: بحيري، سعيد حسن، **علم لغة النص: المفاهيم و الاتجاهات**، (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، ١٩٩٧)، ص٢٤.

[١٤] انظر: العبد، محمد، **النص والخطاب والسياق**، (القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، ٢٠٠٥)، ص٥٩.

[١٥] انظر: هانيه، فولفجانج ، ومان ديتر فيهقجر، **مدخل إلى علم لغة النص**، ص٣٦٠-٣٦١.

[١٦] انظر: تشومسكي، ناعوم، **آفاق جديدة في دراسة اللغة و الذهن**، ص١٦٨.

[١٧] انظر: العبد، محمد، **النص والخطاب والسياق**، ص١٧.

[١٨] انظر: المرجع نفسه، ص١٧.

[١٩] انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، مراجعة: لجنة من العلماء، (القاهرة: المكتبة الجامعية التجارية الكبرى، د. ت)، ج١، ص ٥٤٦-٥٦٢.

[٢٠] انظر: المرجع نفسه، ص٥٥٤-٥٥٥.

[٢١] العبد، محمد، **النص والخطاب والسياق**، ص ٢٣.

[٢٢] تعوينات، علي، **التخلف الدراسي أسبابه وعلاجه، مجلة الرواسي، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي**، باتنة العدد (٤) نوفمبر١٩٩١، ص٢١.

[٢٣] انظر: مرجانة، رشيد، **التأخر الدراسي اللغوي لدى تلاميذ السنة التاسعة بالمدرسة الأساسية**، ص ٣١.

[٢٤] انظر: بلعزي، الطيب، **بعض عوامل تدني التكوين العالي**، العدد (١)، جانفي/فيفري،١٩٩١، ص٤٨.

[٢٥] انظر: ناصف، مصطفى، **اللغة والتفسير والتواصل**، (الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (١٩٣)، ١٩٩٠م)، ص٢٣٢.

[٢٦] انظر: رولان، بارت، **هسهسة اللغة**، ترجمة: منذر عياشي، (حلب: مركز الإنماء الحضاري، ط١، ١٩٩٩م)، ص٤٢٧.